رأي القدس

«فتح» امام مفترق خطير

■ تأجيل اجتماع اللجنة المركزية لحركة فتح الذي كان مقررا ان يعقد في العاصمة الاردنية عمان امس برئاسة السيد محمود عباس ربما يكون بداية مرحلة جديدة في تاريخ الحركة يكون عنوانها اعادتها الى ثوابتها الوطنية التي جعلتها الرائدة في العمل العسكري والسياسي الفلسطيني المقاوم.

فالانطباع السائد لدى غالبية الكوادر القاعدية للحركة يتلخص في ان مجموعة من كوادر الصف الاول، والامنية منها على وجه الخصوص، علاوة على بعض المستشارين المستوزرين من بقايا تنظيمات سابقة، خطفوا قرار الحركة، وحرفوها عن مسارها الوطني وشوهوا تاريخها النضالي العريق.

ومن غير المستبعد ان يكون بعض اعضاء الحركة خاصة من التاريخيين قد استشعروا هذه الحقيقة، ولمسوا حالة التذمر في اوساط القواعد الحركية، وقرروا ان يعبروا عن موقفهم الرافض للخط الجديد للحركة الذي يتزعمه السيد محمود عباس ومستشاروه، بمقاطعة اجتماع اللجنة المركزية حتى لا يتحملوا وزر القرارات الخطيرة التي يريد السيد عباس انتزاعها وتصب في محصلة حل حكومة حماس واذكاء شرارة الصدامات وربما الحرب الاهلية.

فالبيان الرسمي الذي صدر لتبرير الاجتماع تحدث عن العديد من النقاط التي تصب في هذا الاستنتاج ابرزها:

● اولا: غياب سبعة من اعضاء اللجنة المركزية من مجموع 16 عضوا عن هذا الاجتماع، وهو امر لم يحدث في السابق مطلقا، خاصة عدم وجود اي اسباب تحول دون الحضور، فمعظم اعضاء اللجنة يقيمون في رام الله او تونس، ويتمتعون بحرية الحركة والسفر، ولا يوجد ما يمنع من مشاركتهم في الاجتماع.

● ثانيا: القول بوجود اسباب طارئة تمس امن الوطن هو عذر غير مفهوم، فما هي هذه الاسباب التي تحول دون عقد اجتماع ليوم واحد مثلا، وهل عدم الاجتماع سينقذ امن الوطن ويمنع ما يمكن ان يقع عليه من اخطار؟

● ثالثا: الحديث عن تكليف عدد من اعضاء اللجنة بالسفر لمعالجة القضايا الطارئة التي تخص امن الوطن، هو دليل دامغ على وجود خلافات كبيرة بين نهج السيد عباس ومستشاريه، ونهج القيادة التاريخية التي تعارضه وتعارض الخطوات التي عقد العزم على المضي قدما فيها بعد العيد، اي حل حكومة «حماس» وتشكيل حكومة طوارىء مكانها.

الامر المؤكد ان السيد عباس يواجه مشاكل صعبة، ليس فقط تجاه تعامله مع حركة «حماس» وفشل كل الوساطات لحل ازمة تشكيل حكومة وحدة وطنية، وانما ايضا تجاه تعامله مع زملائه في اللجنة المركزية الذين بدأوا يتمردون على سياساته، وعلاقاته الوثيقة وغير الطبيعية، مع الولايات المتحدة ومعسكر الاعتدال الذي تعتزم اقامته للتغطية على حروبها المقبلة ضد ايران وسورية و«حزب الله» و«حماس».

السيد عباس ذهب بعيدا جدا في رضوخه الى «نصائح» بعض مستشاريه داخل حركة «فتح» وخارجها، التي تدفع للمواجهة المسلحة مع حركة «حماس» والتجاوب مع المطالب الامريكية والاسرائيلية والعربية، ولعله بدأ يدرك خطورة المنزلق الذي تدفعه اليه وحركة «فتح» من خلفه مثل هذه النصائح «غير البريئة» و«غير الوطنية».

حركة «فتح» يجب ان تتمسك ببوصلتها الوطنية، وان تقف دائما في الخندق المقابل للخندق الاسرائيلي، وان تقاوم كل الضغوط الامريكية التي تحاول حرفها عن ثوابتها هذه، تماما مثلما فعل زعيمها ومؤسسها الراحل ياسر عرفات عندما صمد في وجه هذه الضغوط وحيدا لاكثر من اسبوعين في كامب ديفيد.

السيد عباس كان على رأس الرافضين لمثل هذه الضغوط، وساهم رفضه في تصليب موقف الشهيد عرفات في كامب ديفيد، بل ساهم بدور كبير في انقاذ رئيسه منها، ولا نعرف كيف يقف حاليا في معسكر الذين كانوا يشاركون الامريكان ضغوطهم على عرفات من اعضاء الوفد الفلسطيني ويستمع الى نصائحهم، ويقبل بتحريضهم!

عن حماس والمأزق السياسي مرة أخرى: في استنجاد الأسرى بالأسرى

د. عبدالوهاب الافندي *

■ أثارت تعليقاتي الأسبوع الماضي حول مأزق حماس السياسي جدلاً واسعاً فاق ما يثار عادة ـ أو ما يبلغني على الأقل ـ من الجدل والنقاش حول مقالات أخرى. ولكن أهمية الجدل تكمن فيما كشف عنه من أزمة عميقة في التفكير العربي المعاصر تتجاوز موضوع الجدل الأصلي. فقد غلب على التعليقات ما يشبه الشعور بالفجيعة في آمال يعلقها البعض على حركة حماس وحكومتها، بأن تكون هي التي ستستعيد فلسطين وتنقذ الأمة، وربما تستعيد الخلافة أيضاً. وإنها لمصيبة أن تتعلق آمال الأمة بأسراها، لأنه ليس هناك عجز أكبر من هذا. فحين تتعلق آمال مليار وربع مليار شخص بالمقيمين في سجن غزة الكبير ومعتقل الضفة البائس، فهذه دعوة لأن نقرأ على الأمة السلام ونديج نعيها.

إننا ندرك بالطبع الحساسية المتعلقة بأي مداخلة من هذا النوع في وقت تتعرض فيه حماس خصوصاً والفلسطينيين عموماً لهجمة غير مبررة وغير أخلاقية. وهذا قد يدفع بالبعض إلى القول بأن الوقت ليس وقت التحليل العقلاني وجردة الحساب، وإنما وقت المساندة والدعم. ولكننا نعتقد دائماً أن أفضل الجهاد هو تبديد الأوهام المهلكة مثلما أن أول الإيمان هو معرفة وحدانية الله. ذلك أن تسويق الأوهام من باب الدعاية قد يخدم بعض الأغراض على المدى القريب، ولكن الحق دائماً أحق أن يتبع.

الأراضي الفلسطينية لا تسمى أراض محتلة عبثاً ومن باب المجاز، بل لأنها محتلة فعلاً. فهي بلاد واقعة في قبضة العدو وسكانها جميعاً أسراه. وما يسمى فيها سلطة وطنية ما هي إلا نقابة مساجين، تشبه اللجان التي كان النازيون يختارونها لإدارة شؤون نزلاء معسكرات الاعتقال، ولأن تكون حلقة وصل بين المساجين والسجانين. فكما نشهد اليوم فإن هذه السلطة لا تستطيع أن ترد عن نفسها سطوة الاحتلال، ناهيك عن أن تحمي شعبها منه. وقد مات ياسر عرفات رحمه الله وهو عاجز عن عبور عتبة باب مقره، واليوم تبعث إسرائيل من يعتقل الوزراء ويقتل رجال الأمن، وكل ما عند السلطة هو الشجب والاستنكار، وهي سلطة نملك نحن منها مثل ما تملك وأكثر. وقد أدرك أصحاب أوسلو هذا الأمر فنادوا بألا بديل عن طلب رضا إسرائيل بكل وسيلة إذا كان لهذه الآليات أن تعمل.

وعليه فحين يهلل البعض لانتخابات نقابة المساجين هذه ويصفها بالحكومة الديمقراطية ويعلنها فتحاً مبيناً ونصراً مؤزراً للأمة، فإن هذا الموقف يكشف عن عمق أزمة الأمة وحجم مصيبتها ومصيبتنا فيها. هذه المهزلة المساة سلطة هي تمثيلية سخيفة، تتيح لإسرائيل كما ذكرنا نقل مهام خدمة الاحتلال للفلسطينيين، وتعفي نفسها من الواجبات الملقاة على عاتقها وفق ميثاق جنيف وهي توفير الحد الأدنى من متطلبات الواقعين تحت سلطتها. وفوق ذلك فإن القبول بهذه التمثيلية يتيح لإسرائيل أن تتعامل مع فلسطين حين تشاء كما لو كانت دولة مستقلة لها حكومتها المسؤولة عن مواطنيها، في حين أن أكبر موظف في هذه الحكومة لا يستطيع أن يتحرك إلى مكتبه أو يستعمل هاتفه إذا اعترضت إسرائيل على ذلك، ولا سلطان له على الشارع أمام بيته، ناهيك عن الحدود.

في مقالتنا السابقة تجاوزنا إلى حد كبير هذه المسألة، ولم نشأ أن نذكر بموقفنا المعروف من العمليات الانتحارية والتكتيكات المشابهة التي مازال ضررها أكثر من نفعها، واقتصرنا على محاولة تقديم آراء في مسائل محددة، بدءاً من المأزق الفقهي الذي أدخلت حماس نفسها فيه بتبني قوالب فقهية جامدة تقوم أساساً على فهم ضيق للسوابق، ونهاية بالفهم المغلوط للديمقراطية ومتطلباتها. وقد نبهنا في الحالة الأولى إلى أن في الفقه الإسلامي سعة من التمسك بشكليات لا تصلح للتعامل في هذا العصر، وتناقض أساسيات الإسلام في التعامل. فهناك مبادئ إسلامية عامة معروفة، وتطبيقات لهذه المبادئ. وبالمثل فهناك مبادئ تتعلق بالديمقراطية، وتطبيقات لهذه المبادئ.

الإشكال الذي نبهنا إليه ترجم نفسه في تناقض بين منطلقات حماس الفكرية وتعاملها مع الواقع. فما ذكرناه عن كون الديمقراطية توازن قوى لم يخف على حماس، التي اعترفت بمشروعية وسلطة الرئاسة الفلسطينية وتقاسم الأدوار معها. ومن إدراك حماس لهذا الواقع فإنها استقتلت لتشكيل حكومة وحدة وطنية، وهو أمر لم تكن له ضرورة إذا قبلنا بالمبادئ الديمقراطية المجردة، لأن من يملك الأغلبية لا يحتاج لحكومة ائتلافية. ولكن قادة حماس كانوا يعلمون تماماً أن الأمور ليست بهذه البساطة. حماس أيضاً تعاملت مع محيطها العربي، ودخلت في مساومات مع دول معروفة الموقف من قضية التسوية، وبعيدة كل البعد عن شبهة الديمقراطية، واستندت إليها، ودأبت على مدحها بالباطل تقية وتزلفاً، وهو أيضاً أمر مفهوم. نفس الموقف اتخذته حماس من قضايا الهدنة، حيث هي الآن داخلة في هدنة مفتوحة مع العدو، بالرغم من أن العدو لا يقبل بالهدنة ولا يلتزم بها. فهي هنا في وضع أسوأ من أوسلو التي اشتملت على الأقل على التزامات متبادلة.

ما تحتاجه حماس (وهو ما سعينا للمساهمة فيه) هو أن يلحق فكرها بممارستها، لأنها تجمع اليوم بين الجمود الفكري والمرونة السياسية، وهي مرونة لا تؤتي أكلها في ظل التمسك بمقولات متشددة تناقضها. فبحسب خالد مشعل رئيس المكتب السياسي، فإن حماس لا تمانع من قيام دولة فلسطينية على حدود 1967، مما يعني عملياً الاعتراف المتبادل، ولكنها لا تريد أن تصل إلى هذا الاستنتاج، على الأقل بدون مقابل. من جانبنا طلبنا من حماس ألا تعطي لإسرائيل المخرج من الورطة التي ستدخل فيها حين تواجه بمطلب الدولة (ناهيك عن قضية اللاجئين) الذي لن تستطيع الوفاء به. فإسرائيل اليوم (ومعها فتح ومعظم الدول العربية) تقول للعالم إنني مستعدة لحل الدولتين، ولكن حماس ترفض الاعتراف، مما يجعل من المستحيل التقدم باتجاه ذلك الحل. حماس بموقفها هذا أصبحت تمثل خط دفاع عن إسرائيل، وترساً يحميها من أن تكشف على حقيقتها، وهي أنها لن تقبل بحل الدولتين. حماس أيضاً تبقي على الوهم الذي تروج له أوساط السلطة الفلسطينية بأن الحل قاب قوسين أو أدنى لولا حماس وتعنتها. ولو خلت حماس بين جماعة أوسلو وشركائهم لتبين الذين صدقوا وعلم الناس حقيقة الأمر.

إن أساس الخلل هنا يكمن في الترويج للوهم بأن الحل بيد الفلسطينيين، في حين أن الواقع يقول إنه لا توجد حكومة إسرائيلية، حتى لو لم تكن يمينية متطرفة مثل الحكومة الحالية، تستطيع أن تقبل بحل الدولتين كما تطرحه القيادة الفلسطينية، بل حتى كما يطرحه جماعة توافق جنيف المستعدين للتخلي عن حق العودة. ولعل الحل الذي طرحه باراك في لقاء «واي ريفر» هو الحد الأقصى الذي يمكن أن تتقدم به حكومة إسرائيلية، ولن تتغير هذه المعادلة إلا إذا أجبرت إسرائيل بضغوط خارجية على التنازل. وهنا يمكن أن نشير إلى «سر» آخر من أسرار الديمقراطية، وهو استجابتها للضغوط الخارجية. وهذا أمر منطقي، لأن الناخبين إذا خيروا مثلاً بين الاحتفاظ بالقدس ومعظم الضفة بلا ثمن، أو التخلي عنهما اكراماً لعيون أبومازن، فإنهم سيختارون الحل الأول. أما إذا كان الخيار بين التخلي عن الضفة أو ضياع الدولة فإن المعادلة تختلف. وبما أنه لا توجد جهة خارجية قادرة على، أو راغبة في، الضغط على إسرائيل، فإن الأمر بيد العرب لا غيرهم لكي يجعلوا الاحتفاظ بمغانم إسرائيل من حرب 1967 مكلفاً. وكما حدث في حرب لبنان الأخيرة حين وجدت إسرائيل أن ثمن الاستمرار في الحرب أكبر من ثمن الانسحاب، فإن الوسطاء وفاعلي الخير سيتكاثرون عندها، بهدف إنقاذ إسرائيل طبعاً.

التعلق بوهم قدرة الفلسطينيين وحدهم على تغيير الأمر، وهو وهم عززه ما وصف بأنه انتصار لحماس مؤخراً، يصرف العرب عن المهمة الحقيقية، ألا وهي تغيير الواقع العربي، لأن الانتشاء بانتصار حماس يعمل عند البعض عمل المخدر الذي ينسى العرب بأن أمة أشرف أنظمتها موقفاً هو النظام السوري القمعي هي أمة لا يمكن أن تنتصر ولا تستحق أن تنتصر. فليس الفلسطينيون هم وحدهم الأسرى في هذه المعادلة، بل إن كل عربي هو اليوم أسير. الفلسطينيون على الأقل أسرى لعدو معروف له شوكة وسلطان واستقلال، أما بقية العرب فهم أسرى لفئات رضيت طوعاً الخضوع لغيرها. أي أنهم عبيد العبيد، وأسرى المماليك، وكفى به ذلاً. ولهذا يتعلق هؤلاء بكل وهم، وينساقون وراء كل ناعق، مما يؤخر الصحوة الحقيقية المرجوة للأمة، وهي صحوة لن تأتي إلا من اليأس الكامل من الواقع القائم.

الطريف هنا أن القوى السياسية في الساحة الفلسطينية عندما اختارت التحرك نحو وفاق محدود اتخذت مما سمي بـ«وثيقة الأسرى» راية تلتف حولها. وهذا أمر له دلالته العميقة، إذ لم يكن اعتباطاً أن فقهاء المسلمين رفضوا إمارة الأسير. فهذا المبدأ، مثل معظم القواعد الفقهية الإسلامية، هو مبدأ عقلي بدهي، لأن الأسير لا يملك أمر نفسه فكيف يملك أمر غيره؟ وحين يستنجد أسرى الأسرى من العرب بأسرى الاحتلال الإسرائيلي، ويستنجد هؤلاء الأسرى حكماً بأسرى آخرين حكماً وواقعاً، ألا يكفي هذا تدليلاً على عمق الهاوية التي انحدرت إليها هذه الأمة التي أصبح أفضل القوم موقفاً من يطلب الإنقاذ من الأسرى؟

* كاتب وباحث سوداني مقيم في لندن

العراق وفلسطين والمبادرات العربية

د. محمد صالح المسفر

■ يشن على الشعب الفلسطيني بشكل يومي حروب شتى بعضها داخلية يقودها «لوردات» السلطة أصحاب اليد الممدودة لتلقف كل المعونات التي تقدم للشعب الفلسطيني، وأصحاب الأفواه المفتوحة أمام ميكرفونات التلفزة العالمية لتثبيط همم المجاهدين، أصحاب الصدور المفتوحة للتباهي بحيوية بعضهم لعل احداهن تقع في غرامه، هؤلاء يشنون على الشعب الفلسطيني الصابر المجاهد حربا إعلامية مضللة ومزورة للحقائق بهدف الوقيعة بين الشعب وخياره الديمقراطي عندما قرر عبر صناديق الاقتراع الحر اختيار حركة حماس لقيادة مسيرته النضالية، حرب تجويع عن طريق حرمان موظفي السلطة من استلام مرتباتهم ودعوتهم لإضراب دام خمسة وأربعين يوما وما انفك ساري المفعول عن طريق التحريض ضد السلطة التنفيذية، والمعلوم لدى كافة الشعب الفلسطيني إن أكثر من 85% من الموظفين كلهم من كوادر فتح وأنصارها، والسؤال لماذا لا يصرف رئيس السلطة محمود عباس مرتباتهم كما كان يفعل ياسر عرفات رحمه الله وهو شخصيا محاصر داخل المقاطعة والشعب محاصر كله داخل أراضي السلطة المزعومة؟ أين أموال وعائدات منظمة التحرير الفلسطينية التي كان يصرف منها الشهيد ياسر عرفات على أفراد سلطته؟ حرب مسلحة تشنها قوى فلسطينية منظمة ومدعومة من قبل إسرائيل وبعض الأنظمة العربية والهدف إعطاء المواطن الذي انتخب حركة حماس لتقود مسيرته لسنوات أربع قادمة الانطباع بان هذه الحركة ليست قادرة على ضبط الأمن ولا قادرة على تيسير سبل الحياة اليومية وتوفير لقمة العيش للمواطنين.

أما الحرب من الخارج فهي أيضا متنوعة، حرب مسلحة تشنها إسرائيل على عامة الفلسطينيين لا فرق عندها بين الفصائل المتناحرة والمتسابقة على رضا أمريكا وإسرائيل، كل فلسطيني عندها هو عدو بما في ذلك العملاء المتعاونون مع أجهزتها الأمنية، حرب مبادرات عربية وأجنبية كلها تطلب من حركة حماس التخلي عن المقاومة المسلحة وحتى المقاومة الفكرية والتنظيمية والاعتراف بشرعية الاحتلال لفلسطين والاعتراف بكل التنازلات التي قدمها الحكام العرب لإسرائيل دون استيذانه. وكذلك تنازلات حركة فتح التي قادت العمل الفلسطيني لقرابة الأربعين عاما دون أن تقدم إنجازا واحدا للشعب الفلسطيني. ودون أن يطلب من إسرائيل تنفيذ كل الاتفاقات التي وقعتها معها السلطة الفلسطينية والاعتراف بالمبادرات العربية ذات الصلة قد ينتشي احد «لوردات» فتح ويقول: لقد قدمنا الكثير للعمل الفلسطيني ووجودنا في غزة ومعنا سلاحنا هو إنجاز وطني كبير. والرد على مثل هذا القول لا يحتاج إلى عناء، إنكم وسلاحكم رهائن لدى الجيش الصهيوني، فسلاحكم لم يردع الاجتياحات العسكرية الإسرائيلية للضفة الغربية والقطاع، ولم يتصد للطائرات التي تقصف بيوت الآمنين ومخيمات اللاجئين، وجمهوريتكم في «الفاكهاني» فشلت لأنها لم تحم أبناء المخيمات هناك، وجمهوريتكم في عمان فشلت ولا داعي لنكء الجراح، وماذا عن جمهوريتكم في منطقة «الحمامات» في تونس فحدث ولا حرج. نؤكد لكم بان جمهوريتكم في غزة والضفة ستلقى ذات المصير مالم تعودوا لرشدكم وتتعاونوا مع إخوانكم الشرفاء من جميع القوى الوطنية الفلسطينية من اجل دحر المعتدين المحتلين لبلادكم.

يا حكام العرب العراق يتقسم بين اللصوص والعملاء والخونة أمام أعينكم وانتم صامتون وكأن الأمر لا يعنيكم، برلمان اللصوص اقر التقسيم بتاريخ 11 تشرين الاول/ أكتوبر، والأمم المتحدة في سابقة تاريخية تقبل بتمثيل وفد كردي لإقليم كردستان العراق في أعمال الجمعية العامة للأمم المتحدة، ووزيرة خارجية أمريكا تزور كردستان العراق بعد زيارة للعاصمة العراقية بغداد وتقبل برفع العلم الأمريكي إلى جانب علم الانفصاليين وتقبل أن تقف إلى جوار البرزاني كرئيس لذلك الجزء من العراق، في الوقت الذي تحدثنا فيه الإدارة الأمريكية عن حرصها على وحدة العراق وسيادته واستقلاله.

يا حكام العرب رئيس أركان حرب القوات المسلحة البريطانية يدعو حكومة بلاده للانسحاب من العراق والرأي العام البريطاني يؤازره في طلبة، وتوني بلير يودع منصبه مهزوما في العراق وأفغانستان، وعصابة الستة في واشنطن التي تدير الارهاب العالمي تعيش في مأزق لم يسبق له سابقة إلا إزاحة الرئيس نيكسون. أمريكا قد تفاجئكم وتعلن انسحابها من العراق تدريجيا وفي وقت قصير جدا لتسلم المهمة في الشأن العراقي إلى إيران نظير تفاهمات في شان مستقبل المنطقة لصالح الطرفين إيران وأمريكا وأنتم الخاسرون.

يا حكام العرب الشعب العراقي يتعرض للابادة الجماعية تحت أسماعكم وأبصاركم مات منه ما يقارب المليونين إبان الحصار الظالم عليه المفروض من قبل أمريكا وشاركتم في تلك الجريمة عن سبق إصرار لأكثر من ثلاثة عشر عاما واليوم وفي ظل الديمقراطية التي تبشرنا بها أمريكا قتلت القوات الأمريكية والبريطانية المحتلة للعراق ما يزيد عن 655 الف نسمة منذ احتلال العراق عام 2003 وهجر ما يزيد عن مليون ونصف إنسان قسرا إلى خارج وطنهم، وهناك اعداد مأهولة من المعاقين والذين لا يستطيعون الحياة بمفردهم، أضف إلى ذلك تأثير أسلحة الدمار الشامل التي استخدمت في الحروب ضد أهلنا في العراق ومنها اليورانيوم المنضب، كل هذا يجري يا حكامنا وانتم تمعنون في حماية جيوش المحتلين وعملائهم في العراق عن طريق إحكام الرقابة الحدودية مع العراق حتى لا يصل الدعم والإمداد للمقاومة العراقية الباسلة من شرفاء امتنا العربية والإسلامية.

اخر القول: انقذوا يا حكامنا أوطانكم قبل التجزئة والتفكيك وذلك بنصرة المقاومة في العراق وفلسطين وانصروا إخوانكم في السودان قبل أن يأتي عليكم الطوفان.

المرأة المسلمة في المخيلة الغربية

د. مضاوي الرشيد *

■ بين الحين والحين يعود الغرب الى موضوعه المفضل من خلال تصريحات لسياسيين او عن طريق ابحاث تمولها المؤسسات الغربية وما تعليقات وزير خارجية بريطانيا السابق جاك سترو عن النقاب الا قطرة في بحر كبير عمره مئات السنين. سترو لم يأت بجديد بل كان يعبر عن اللاوعي الغربي ونظرته الى المرأة المسلمة وحجابها فقد سبقه الكثير من الرحالة الغربيين نساء ورجالا وتحدثوا عن الحجاب ومن ثم جاء دور الاكاديميين من علماء اجتماع وانثروبولوجيا ليسلطوا الضوء على المرأة المسلمة وتجربتها في مجتمعات مختلفة وثقافات متباينة ربما لا يربطها بعضها ببعض سوى الاسلام.

ظهرت المرأة المسلمة في المخيلة الغربية منذ القدم وبالتحديد منذ الاتصال الذي حصل لحظة ظهور الاسلام كثرت التعليقات والملاحظات وكانت في مجملها وحتى مرحلة متأخرة سلبية، واذا استعرضنا صورة المرأة في ادبيات الرحالة فسنجد صورة سوداوية قبيحة رسمها الكثير عن المرأة المسلمة. خذ مثلا نيبور الذي كتب عن رحلته عام 1792. اقر هذه الرحالة ان الحجاب أهم قطعة ثياب ترتديها المرأة المسلمة واقر أن تغطية الوجه تبدو منتشرة في البلاد العربية التي زارها حينها. فتحدث عن الفلاحات المصريات وقال انهن قد يفاجأن ويظهر بينهن رجل وهن عاريات ولكنهن سرعان ما يغطين وجوههن رغم بقاء اجزاء اخرى من الجسد عارية. ويزعم نيبور ان المصريين الفلاحين لا يعطون بناتهم قمصانا الا اذا بلغ عمرهن ثمانية اعوام كذلك يزعم انه رأى بنات مصريات يحدقن به وهن عاريات، تصوروا هذا المشهد الكوميدي وكيف قرر نيبور ان البنات اعمارهن ثمانية اعوام رغم ان البعض في البلاد العربية لا يزال لا يعرف تاريخ ولادته حتى هذه اللحظة فما بالكم بالقرن الثامن عشر، يرسم لنا نيبور صورة نساء عاريات ولكنهن مغطيات وجوههن.

نيبور يكشف عريه هو الذي يوصلنا الى خبايا نفسه. الرحالة الذي يهجر وطنه ليبحث عن الجسد ويرسمه بحبره ولا تكتمل الصورة الا اذا تطرقنا لكتابات رحالة آخر هو ايضا يبدو معلقا بين خفايا ذاته الداخلية وبين ما يجده في ترحاله خاصة المرأة المسلمة. يقول ويليام ويلسون عندما زار مصر و«الارض المقدسة» ـ فلسطين ـ عن نساء المنطقة انهن اكثر الاشياء قباحة يربطن «منديلا» حول الرأس ويرتدين قميصا خشنا حول اجسادهن بالاضافة الى منديل آخر يخبئن تحته وجوههن وكأنه ستارة لها فتحات في منطقة الفم تكون ملوثة عادة بلعاب لونه بني. ويزعم انه راقبهن وهن يغسلن ثيابهن في النيل وكأنهن يعانين من عقدة نقص عندما يرين نساء الغرب البيض لذلك هن يستحين من اظهار وجوههن. كتب ويلسون هذا الكلام في عام 1823 (صفحة 77).

المرأة المسلمة تظهر في مثل هذه الادبيات «كشيء» وبالفعل تستعمل كلمة object للدلالة على هذه المرأة ولكن الولع برؤية وجه المرأة الشيء تظل مسيطرة رغم عدم قدرة هؤلاء الرحالة على اختراق الستارة المزعومة يذهب هؤلاء الى بلاد كمصر وفلسطين بحثا عن حضارة وتاريخ عرفوه فقط من خلال حفريات الاركيولوجيا والتي ركزت مخيلتهم على المباني والاثار القديمة واذا بهم يتطلعون لاستمرارية لا يجدونها وقت الرحلة. يحاول البعض ان يبحث عن الوجه الفرعوني والموياء ولكنه ينصدم عندما يجد وجوه النساء مغطاة بخرق يعتبرونها قذرة. صدمة الغربي هذا تعبر عن نفسها بالالفاظ البشعة والسلبية التي تصف الاحياء من اهل مصر وتبقى التعابير الجميلة البراقة تستعمل فقط للدلالة على حضارة المباني والاثار. يقبل الغربي بريق الفراعنة وحضارتهم لكنه يحتقر المصري المعاصر وخاصة المرأة الفلاحة في الصعيد وعلى ضفاف النيل.

واذا اخذنا عينة من ادبيات الرحالات الغربيات فسنجد تعابير اكثر سلبية فلا تضامن نسائي ولا تعاطف انثوي هنا. خذ مثلا مسز بيرتون في زيارتها الى سورية وفلسطين عام 1875 حيث كتبت اقبح الوصف لنساء المنطقة. تعترف مسز بيرتون ان النساء يلهون ويلعبن ويأكلن المكسرات بروح فكاهية ولكنها تصف عجائز المنطقة وتقول انهن يجلسن القرفصاء تغطي خمس شعيرات رؤوسهن (استطاعت المسز ان تعد شعيرات نساء سورية وفلسطين طبعا) وتركز ان هذه الشعيرات مطلية بلون برتقالي وما اقبح هذا المنظر حسب رأيها. واذا نطقت هذه المجموعة النسائية فالصورة تصبح اكثر قبحا اذ ان النساء يتكلمن بصوت خشن تشمئز منه الاذن. وتجزم المسز انه يجب على النسوة ان يحمدن ربهم على الحجاب الذي يحجب هذا القبح (1875 ـ صفحة 145).

اذا كان هذا وصف الرحالة فكيف هو الحال مع تطور العلوم الانسانية والاجتماعية وخاصة تلك المتعلقة بدراسة المرأة المسلمة يا ترى؟ هنا انقسم المحللون ومعظمهم اكاديميات متأثرات بالحركة النسوية في النصف الثاني من القرن العشرين. في موضوع الحجاب قرر بعضهن انه مؤسسة اقصائية لا تعطي المرأة حق التصرف بجسدها بينما رأت مجموعة اخرى ان الحجاب محرر للمرأة من استهلاكية الغربي الذي يجعل من الجسد محطة للدعاية والاثارة. ورغم العمل القيم الذي قامت به مجموعة كبيرة من عالمات في الاجتماع والانثروبولوجيا الا ان خطابهن بقي مهمشا في الاطار العام للخطاب الغربي عن المرأة المسلمة. تظل الصور الاولى قابعة في المخيلة الغربية ومؤصلة بأدبيات قديمة وحديثة.

خطاب سترو اذا ليس الا وقفة هامشية في المسيرة الطويلة التي ادت الى النظرة السلبية لموضوع الحجاب بشكل عام والنقاب بشكل خاص.

نقول ان الحجاب بشكل عام لا يقف حجر عثرة في طريق الاندماج والانصهار في المجتمع المستقبل للمرأة المسلمة ولكن اعتراف سترو انه طلب من بعض المنقبات نزع نقابهن لا يمكن ان يقبل لأسباب متعددة. ماذا يريد سترو ان يقرأ في وجه امرأة تأتيه بمشاكلها في بلاكبورن؟ طبعا سترو نشأ في بيئة لا تعرف الا قراءة الجسد وكأن الكلام لا يكفي. هل يا ترى يشك سترو في صدق محدثته وكلامها المسموع لذلك يريد ان يقرأ اللغة الجسدية وخاصة ما تبثه عضلات الوجه والعين؟

ان يطلب رجل في موقع سلطة كسترو من امرأة ان تنزع اي قطعة من ملابسها يعرف في القانون البريطاني انه تحرش جنسي مهما كانت نوايا الرجل حسنة. كذلك تصوروا موقفا آخر، لو طلبت من فتيات في صف الدراسة ان يغطين صدورهن المندلقة على مقاعد الدراسة لان في ذلك بعض الاثارة لشباب الصف وتشتيت لأذهان الذكور في محاضراتي لاتهمت بأنني اتدخل في خصوصيات طلابي الاناث كذلك لو طلبت من تلميذة من تلميذاتي ان تنزع المسمار الذي يتوسط لسانها او الحلقة التي تربط اذنها بحاجبها لاتهمت انني ارفض نمطا معينا من الحلي وارفض ان تعبر هذه التلميذة عن خصوصيتها وذوقها الرفيع مهما كانت السلاسل هذه مصدرا لازعاجي وحتى قرفي من المسامير المحاطة بهالة من الالتهابات الناتجة عن التصاق المعدن بمناطق حساسة من الجسد والوجه.

اعترف ان مسامير اللسان تشتت ذهني وتجعلني اقل تركيزا على ما تقوله تلميذتي ولكنني مجبرة على ان اتقبلها كما هي واتجاوز حساسيتي من المسامير. وبالفعل مع مرور الزمن يصبح المرء اكثر تعودا وليس قبولا لمثل هذا النوع من الثقوب والمعادن. لماذا لا يتعود سترو مثلا على الاكتفاء بالكلمة ويعتبرها صادقة ليست بحاجة لفضلات الوجه لاثباتها او لماذا لا يتعود سترو مثلا على قراءة لغة العيون فهي دوما صادقة ومعبرة عن خبايا النفس.

مشكلة سترو وغيره ليس مع النقاب او الحجاب. المشكلة اكبر من ذلك بكثير، الهوية هي اليوم على المنصة للبحث والنقاش. النقاب او الحجاب هو اليوم ساحة واحدة فقط من ساحات معركة الهويات وصراعها ليس فقط في بريطانيا بل في مناطق اخرى من الغرب وحتى في العالم الاسلامي.

يجب ان يقرأ سترو الحجاب ليس من منظور التعددية او من منظور الاندماج اذ ان عدم الاندماج ليس سببه الحجاب وانما ما هو اكبر منه بكثير. التقوقع الذي حصل في بعض اطراف الجالية المسلمة في الغرب هو نتيجة عوامل داخلية خاصة بهذه المجتمعات وليس سببه «خرق» المسلات المنسدلات على رؤوسهن. لعدم الاندماج ثنائية المسؤول عنها طرفان: اولا المجتمع الحاضن للأقليات وثانيا الاقليات ذاتها.

لا يزال المجتمع الحاضن يحاول ان يخترق الحجاب وخاصة النقاب بالذات فمهما استهلكت المرأة المسلمة من منتجات غربية تخبئها تحت الجلباب الا انها ستظل الشغل الشاغل لطيف كبير من السياسيين والاعلاميين والمحللين الغربيين. لقد حصل بالفعل تصدير المنتجات الغربية للمسلمة والتي تستهلكها كما تستهلكها المرأة الغربية لكن الاختراق الاقتصادي لا يعوض عن الاختراق الحضاري المرجو هذا الاخير يعتبره الغرب مرتبطا بتغيير النمط السلوكي بدءاً بالزي وتبعاته.

سيظل الوجه المحور الرئيسي للنقاش وسيظل الكثير من النساء متمسكات به رغم كل الضغوط لانه المعركة ربما الاخيرة التي ستفجر الكثير من الامور. قبل ان يسقط سترو النقاب عليه اولا ان يطلع على مجلدات كبيرة من النقاش الفقهي والتي دارت عبر العصور بين المسلمين انفسهم حول الموضوع ذاته ليرى ان التعددية الحقيقية ليست حكرا على الغرب او ثقافة الـMulticulturalism التي تتغنى بها بريطانيا لا لشيء الا لتتعالى على جارتها الفرنسية. لم تخترع بريطانيا وحدها فقه التعددية بل هناك حضارات اخرى اجتهدت قبلها بكثير. ولكن يبدو ان ادبيات الرحالة السابقة لا تزال تهيمن على النظرة الغربية المعاصرة والتي جاء خطاب سترو ليتفس عنها ولو بعض الشيء.

* كاتبة واكاديمية من الجزيرة العربية

القدس العربي
يومية سياسية مستقلة
تطبع في لندن ونيويورك وفرانكفورت وتوزع في جميع انحاء العالم
الاشتراكات:
الاشتراك السنوي 450 جنيها استرلينيا في عموم بريطانيا و 750 دولارا امريكيا للوطن العربي وخارج بريطانيا بما في ذلك اجور البريد.

الناشر:
مؤسسة القدس العربي للنشر والاعلان

رئيس التحرير:
عبد الباري عطوان

المقر الرئيسي (لندن): 164/166 كنج ستريت، همرسميث، لندن دبليو 6 او كيو يو
هاتف: 8008 741 ـ 0208 (6 خطوط) ـ
فاكس: 8902 741 ـ 0208 أو 7637 748 ـ 0208
مكتب القاهرة: 43 أ شارع قصر النيل ـ الدور الاول ـ شقة رقم (2). هاتف/فاكس: 3901523(202)
مكتب المغرب: 80 شارع فال ولد عمير شقة 7 الطابق الرابع ـ الرباط. هاتف/ فاكس: 770594(37 212)
مكتب عمان: شارع الصحافة مجمع البداد التجاري الطابق الرابع.
هاتف/فاكس: 5066089 (9626)
مكتب باريس: هاتف ـ فاكس: 57364 420 (331)

Al-Quds Al-Arabi
daily Independent News Paper
Published In London, New York and Frankfurt by Al Quds Al- Arabi Publishing LTD
Circulated in Europe, Middle East, North Africa and North America.
Editor In Chief
ABDEL BARRI ATWAN

Head Office (London): 164-166 King Street, Hammersmith, London W6 0QU England
Tel: 0208-741 8008 (6 Lines) Fax: 0208-741 8902 / 748 7637
email: alquds@alquds.co.uk * Internet: www.alquds.co.uk
Cairo Office: 43 a Kasser Al Neel St, First Floor, Flat No (2).
Tel/Fax: (202) 3901523
Morocco Office: 80 Fal Ould Omeir Str. Flat No.7 - Rabat - Morocco
Tel/Fax: (212 37) 770594
Amman Office: Al Sahafa St. Badad Business Complex.
Tel/Fax: (9626) 5066089
Paris Office: Tel / Fax: (331) 420 57364

AL-Q